

## الموقف التربوي عند القلقشندی

### المشكلة وأهمية دراستها :

يزخر تاريخ بعض الأمم والشعوب بعدد من القيادات الفكرية التي تركت بصماتها على حركة التطور الفكري على المستوى الإقليمي ، وأيضاً على المستوى العالمي . وتكاد منزلة الأمة تتحدد بمقدار ما أفرزته من قيادات ساهمت في حركة التطوير العالمي من حيث المجالات العلمية والثقافية .

صحيح أنه لا بد من الإقرار بأن المفكر ليس نبأ شيطانياً خرج وحده ، وبجهد وحده ففكر فيما شغله من مسائل وقضايا ، وإنما هو نبت اجتماعي لفرزته ظروف اجتماعية معينة ، وأثرت عليه اتجاهات ثقافية سائدة ، نقول: صحيح هذا ، ولكنه لا ينفي أبداً مقولة الدور الذي تقوم به مثل هذه القيادة ، وإلا فما الذي لم يجعل أشخاصاً آخرين يقومون بنفس الدور وهم يعيشون العهد نفسه والظروف نفسها ؟

وتاريخ مصر يكاد يضعها في مقدمة الأمم صاحبة السهم الوافر في إفراز مثل هذه النوعية من القيادات مما جعل لها دوراً واضحاً وفضلاً بارزاً على مسيرة الفكر الإنساني ، وخاصة في عهدها الإسلامية ، وفي مقدمة هذه العهود عصر سلاطين المماليك .

ففيه أصبحت مصر " مجمع القيادات و " ميدان " الفكر الذي تلتقى فيه كافة طرق المعرفة من تاريخ وجغرافيا وعلوم دينية وطبيعية ورياضية وأدبية، كان لها أثرها الذي لا شك فيه في إثراء الثقافة الإسلامية . ولم يكن يميز هذا الفكر بأن صاحبه شامي أو مغربي ، عراقي أو يمني ، فارسي أم تركي ، وإنما

\* ساعدت د. زينب حسن في بعض أجزاء الدراسة.

يكفى أن يكون "عالما" ، ويكفى أن يكون (مسلمًا) صحيح العقيدة ، سليم الفكر  
لنفتح له الأبواب كي يسجل ناتج فكره على صفحات الورق .

ومما لا شك فيه أن هذه الآثار الفكرية لا ينبغي أن تتحول إلى مجرد  
قطع "آثار" نتسلى بالنظر إليها ليملؤنا الشعور بالزهو والفخر ، بل لا بد من  
التوفر عليها لتحليلها ودراستها وطرح الطالغ منها وانتقاء الصالح ودمجه في  
ثقافتنا المعاصرة ، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا لنتحقق لنا وحدة الثقافة فتتحقق  
لنا وحدة الشخصية وتكاملها ومن ثم لا نقع فريسة التمزق بين ماض غابر  
وحاضر مشكل ومستقبل في علم الغيب .

### تحديد المشكلة :

يمكن تحديد المشكلة في السؤال التالي :

بناء على ظروف الثقافة والعصر الذي عاشه القلقشندى ، ماذا كان موقفه  
من أهم القضايا التربوية السائدة ؟

### حدود الدراسة :

سيتركز هذا البحث على تحليل محتوى ذلك العمل الفكرى للضخم  
الخاص بالقلقشندى المعنون بـ ( صبح الأعشى ) وذلك في محاولة لاستقراء  
اتجاهات العصر التربوية وأهم القضايا التي سادت لبيان وجهة نظر القلقشندى  
إزاءها، وبذلك فإن هذا البحث سيحاول (رؤية) القلقشندى من خلال هذا العمل  
وحده دون غيره ، وكذلك بدون استعانة بتحليلات الآخرين وكتاباتهم عن  
القلقشندى .

## منهج الدراسة :

من الواضح أن موضوع البحث ينتمى إلى عصر تاريخى مضى منذ زمن طويل، وبالتالي فهو موضوع " تاريخى " مما يوجب استخدام المنهج التاريخى فى دراسته ، ولكننا يجب أن نلتزم من الصدق ما يجعلنا نقول أننا لن نستخدم هذا المنهج من حيث النقد الداخلى والنقد الخارجى ، ذلك أن ( العمل العلمى ) موضوع الدراسة منشور ومحقق ومطبوع وثابت أصله ونسبته إلى القلقشندى ، ومن هنا فإننا سنقتصر فى استخدام المنهج التاريخى على استقرار الوقائع والأحداث والربط بينها للخروج بالسلمات والاتجاهات والخصائص الرئيسية واستنباط الأفكار والفلسفة الكامنة .

كذلك فإننا لابد من أن نستعين بقدر من ( التحليل الفلسفى ) بالمعنى المنهجي الذى يجعلنا نقف أمام الفكرة أو اللفظ أو المصطلح لنحاول بيان معانيه أو معناه وملولته ومغزاه فى التربية .

## مفهوم الموقف التربوى :

قصدنا أن نستخدم هذا المصطلح دون غيره من المصطلحات الشائعة لدى الباحثين لأنه - نتيجة استقرائنا - أقرب إلى تصوير المعانى التى كتب عنها القلقشندى . ذلك أن الجمهرة الكبرى من الباحثين قد درجت على استخدام مصطلحات مثل: " الفكر التربوى " ، " فلسفة التربية " ، " الآراء التربوية " ، " النظرية التربوية " عندما يكون الباحث بصدد دراسة تربوية محورها إحدى الشخصيات الهامة فى مسيرة التربية عبر العصور والأعوام .

وبالنسبة للشخصية التى نتعرض لها بالبحث والدراسة لا نستطيع أن نزعم لها " فكرا أصيلا " يميز صاحبها عن غيره ممن سبقوه أو أتوا بعده

وإنما هو أمين لعصره وصورة صادقة للثقافة التي يمثلها بثقافة الموسوعات ودوائر المعارف والشروح والحواشي والتقارير و " التجميع " ، فهو يأتي بفكرة من هنا وفكرة من هناك ، ويشير إلى رأى هذا وإلى رأى ذلك أحيانا تصرّحا وأحيانا تلميحيا .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلربما يجئ التساؤل عما يدرينا إذا بأن ما هو مكتوب يمثل رأيه واتجاهه ؟ وجوابنا على ذلك أن عملية " الانتقاء " نفسها يمكن أن تكشف عن ( موقف فكري ) وإيداء للرأى ضمنيا .

إننا نتألف عادة أن نسمع ونقرأ عن " للموقف السياسي " أو " للموقف الاقتصادي " لبلد من البلدان أو زعيم من للزعماء أو مسئول من المسئولين ، وعلى نفس للقياس نحاول نحن أن نستخدم هذا التعبير للتعني به محاولة تحليلية لاستقراء " الواقع " الذي عاشه للقلقشندى من للناحية للنظرية ، ونؤكد على هذه للصفة للأخيرة بالذات لأننا لن نتعرض للأحوال للتعليمية التي مر بها للرجل إلا بدرجة ثانوية لا لأنها لا تمثل ركنا من أركان " للموقف للتربوي " ، وإنما لأن كثيرا من للباحثين والكتاب قد أوفوها حقها ، ومن ثم فإننا نسلم بأهميتها وحيويتها في تصوير ( للموقف للتربوي ) ، وأردنا أن نقتصر على اللجانب للنظري لأن حظه من الدراسة كان قليلا ، إن لم يكن نادرا .

### الأصول الاجتماعية لموقف القلقشندى :

تشكل جملة العوامل وللظروف الاجتماعية " الأصول " للتي تلعب دورا أساسيا في تشكيل فكر المفكر أو آراءه سواء في التربية أم في غيرها من المجالات ، وكذلك فيما يتخذ من مواقف . وللرجوع إلى مثل هذه الأصول إنما هو بمثابة ( تفسير ) للظواهر موضع للدراسة .

ومن المعروف أن القلقشندى عاش طرفا من عصر المماليك في مصر ،  
فتشبعت بظروف هذا العصر آراؤه وأفكاره وحياته العملية .

ومما ساعد على إكساب عصر المماليك أهمية خاصة في التاريخ ، ومكن  
لسلاطينه من البقاء والاستمرار ، ومن تنفيذ مشاريعهم الضخمة سواء كانت  
حربية أم عمرانية ، ازدياد أهمية مصر بصورة لم يسبق لها مثيل في النشاط  
التجارى بين الشرق والغرب ، ذلك أن حركة توسع المغول ، ترتب عليها وقف  
للتجارة بين الشرق والغرب ، سواء كانت عن طريق الخليج - بغداد ، أم عن  
طريق فارس وشمال العراق فالبحر الأسود ، وبذلك لم يبق آمنا من طرق  
التجارة بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الأحمر ومصر ، وسرعان ما  
أفاد سلاطين مصر من تلك الفرصة ، فاحتكروا تجارة الشرق وجمعوا من وراء  
ذلك أموالا وثروات ضخمة أضفت عليهم وعلى دولتهم مسحة من الأبهة  
والبسطة والبذخ (١) .

ولم يقتصر ذلك البذخ على الطبقة الحاكمة من المماليك ، وإنما تنافس  
الوزراء والكتاب والتجار فى تشييد القصور والتفنن فى زخرفتها والتأنق فى  
تأثيرها حتى غدت مضرب الأمثال ومحورا لكثير من القصص المعاصر ،  
وسرعان ما وصلت أخبار تلك الثروة إلى بقية البلدان العربية المجاورة ، فهرع  
كثير من أهلها إلى مصر لما بلغهم عن " أحوال مصر والقاهرة من الترف  
والغنى " (٢) .

وقد كان المجتمع مؤلفا من طبقتين متميزتين هما : الطبقة الحاكمة  
والطبقة المحكومة وتتكون الطبقة الحاكمة من السلطان وهو ولى الأمر الشرعى  
، ومن أمراء دولته ، وهم يعاونونه فى الحكم ، ويختارون السلطان من بينهم ،  
إذا خلا منه منصبه ، ومن جنوده السلطانية وهم عماد الجيش وحفظة الأمن ،

وجميع رجال هذه الطبقة - فى جملة الأمر - من الجنس الجركسى ، وقد استبدت بكل أسباب القوة (٣) .

أما الطبقة المحكومة ، فهى عامة الشعب ، وأغلبها من الجنس العربى ؛ منهم التجار ونور الرفاهية والنعمة من الملاك ، والسوقة بولباعة ، والصناع ، وأهل الفلح ( الفلاحة ) والفقهاء وطلاب العلم والأجراء وأهل الحرف ونور الحاجة والمسكنة ويسمونهم الحرافيش (٤) .

وقد عنى السلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عددا من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كلا منهم فى طبقة جنسه بحيث لا يقيم فى طبقة من للطباق المخصصة للمماليك بالقلعة إلا للمماليك نور الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك فى الطباق مجموعة من الطواشية الخصيان ، فضلا عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والخط وأحكام الدين الإسلامى . ثم إن الأساتذة - من سلاطين وأمراء - لم يضمنوا على مماليتهم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوية مشبعة بالعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وصرفوا لهم الكسوات الفاخرة .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية ، حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية ، خرج من للطباق وانتقل فى أدوار الخدمة السلطانية رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء .

## بعض قضايا عصر القلقشندى التربوية

لا نريد أن نفرض على القلقشندى قضايا عصرنا وهمومه التربوية ونحاول أن (نستطقه) فيها ، ذلك أن اهتمامات العصور متباينة مما لا بد أن يلقى بظله على اهتمامات ومواقف العالم أو المثقف .

### العلاقة بين ( كتابة الإنشاء ) ومطلق المعرفة والعلم :

يجئ حديث القلقشندى عن العلم فى معرض حديثه عن ( الكتابة ) التى أفاض فيها بيانا لقيمتها وتعدادا لمناقبها وتوجيها إلى ضرورة تعلمها ، وهو فى كل هذا وغيره لم يكن يقصد مجرد " الكتابة " وإنما هو يستخدمها بمعنى يتسع ليجعل منها أقرب إلى " الثقافة " أو " العلم " ويتبين لنا ذلك من تحليل المقصود من الكتابة .

فإذا كانت " الكتابة " فى اللغة معناها "الجمع " ، فيقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا وبحيث سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض ، إلا أن القلقشندى قد نوه إلى أن من معانيها أيضا " العلم " ، مستدلا على ذلك بقوله تعالى " أم عندهم الغيب فهم يكتبون " ، أى يعلمون ، وهو نفس المعنى الذى قصده الرسول صلى الله عليه وسلم فى رسالته إلى أهل اليمن حين بعث إليهم معاذ وغيره (٥) " أنى بعثت إليكم كاتباً " ، قال ابن الأثير فى غريب الحديث : " أراد عالماً ، سمي بذلك لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده علماً ومعرفة ، وكان الكاتب عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً " .

ولعل ما يقرب معنى " الكتابة " من معنى " المعرفة " وخاصة المكتوبة ، استعانة القلقشندى بتعريف أحد العلماء للكتابة من الناحية الاصطلاحية حيث قال : " بأنها صناعة روحانية تظهر بألة جثمانية " . ومن المرجح أنه يقصد

بالصناعة للروحانية هنا تلك العمليات العقلية التي بواسطتها يكون الإنسان أفكارا تدور حول موضوعات بقصد البحث فيها ، دليل ذلك أنه فسر في موضع آخر معنى للروحانية " بالألفاظ التي يتخيلها للكاتب في أوهامه ويصور من ضمِّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه " . أما " الجممانية " ، فالمقصود بها الخط الذي يخطه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة ، صورة محسوسة ظاهرة (٥) (ص ٥١) .

وإذا كان القلقشندى يذهب إلى أن أهم أنواع الكتابة هو كتابة الإنشاء " فينبغي أن نقف وقفة قصيرة لنبين مقصوده منها حتى لا تختلط المعاني بما هو شائع في الثقافة الشعبية ، فالكثيرون يفهمون من كلمة " الإنشاء " معنى ينصرف إلى مقرر " للتعبير " في مدرستا ، بل بالغ كثيرون فأخذوا يعنون بها عادة كل كلام نظري لا تطبيق له مزين بالألفاظ ذات الرنين للعالي والأساليب البيانية والصور الأدبية ، مع افتقاد المضمون ، فيطلقون على ما يقرعونه أو يسمعون من هذا بالقول " دى شوية إنشاء " !!

وإذا كان من الممكن أن يكون مقصود القلقشندى من " كتابة الإنشاء " ما نقصده اليوم من أعمال " السكرتارية " ، إلا أن ذلك وإن كان يحمل بعض الصحة ، لكننا نظلمه كثيرا لو راعينا بين الاثنين ، فأعمال السكرتارية " تنفيذية " بحتة ، ، وآلية ، بينما تميزت صناعة الإنشاء ، بالابتكار والإبداع ، فهي إن أقرب ما تكون إلى " التأليف " ، ذلك أن الإنشاء مصدر ( أنشأ ) ، وأنشأ الشيء

---

\* نظرا لاعتمادنا في بقية الدراسة على كتاب صبح الأعشى ج ١ وحده آثرنا الاكتفاء بالإشارة في المتن إلى أرقام الصفحات المحال إليها .

إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذ به ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات (ص ٥٢) .

ومما يبين علاقة كتابة الإنشاء بالعلم والمعرفة بتأكيد القلقشندى أن ممارستها لا بد أن تكون له دراية طيبة بالكثير من الأعمال والمهن القائمة فى الدولة ، إذ يكتب للقائمين بهذه الأعمال : " فلا بد أن يكون عالما بصناعة من يكتب له " ، وهو الأمر الذى نفتقده الآن فكاتب الكمبيوتر يمد يده إلى كتابات اقتصادية واجتماعية ودينية وأدبية وغيرها ، دون أن تكون له أوفى دراية بطرف منه ، فكأنه " قلم حى " إذا صح هذا التعبير ما عليه إلا التنفيذ !

ولا تقف للمسألة عند ضرورة إمام الكاتب ودرأيته بأعمال من يكتب إليهم ، بل لا بد أن يضيف إلى ذلك عددا من المهارات " الأدبية .. فيضمن كتابته " لطائف المعانى التى هى زبد الأفكار وجواهر الألفاظ التى هى حلية الأسنة . وبذلك تنب الحياة فى الألفاظ الجامدة المسطورة على الصفحات فتنتقل إلى العقول والقلوب محققة ما قصد بها وما أريد بكتابتها " مع مراعاة رشاقة للفظ وحلاوة المعنى وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعانى الأبار ( للمبتكرة المناسبة ) للأمر الحادثة التى لم يقع مثلها ولا سبق سابق إلى كتابتها لأن الحوادث والوقائع لا تنتهى ولا تقف عند حد " (ص ٥٥) .

### فضل الكتابة وقيمة العلم :

وكان على القلقشندى ، وليد الثقافة الإسلامية التى أنزلت العلم منزلا رفيعا وألحت للمعرفة محلا ممتازا أن يتابع ذلك النهج ويحتذى بتلك السنة فيبين قيمة العلم ويبرز أهمية الكتابة وفضلها ، ولا غرو فى ذلك الإلحاح المستمر على هذه القضية مما قد لا يستسيغه بعض المعاصرين ، ذلك أن المجتمع المعاصر قد سار شوطا طويلا على طريق العلم والمعرفة وأصبحت أهمية التعلم مسلمة من المسلمات ، لكن إذا رجعنا إلى تلك القرون السابقة، لم نجد

الحال كذلك ، فالجمهرة الكبرى أميون ، والبنية الاجتماعية والاقتصادية ليست على المستوى الذى يجعل من العلم أساسا لا بد منه لسير عجلة الحياة الاجتماعية.

ويستشهد القلقشندى هنا بقول الله عز وجل ﴿ لَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق: ٣ ، ٤ ، ٥) ، فانه سبحانه ينسب تعلم الكتابة إلى نفسه ، ويعتبرها من آيات كرمه ومظاهر إحسانه على الناس . وهنا نلاحظ أن استشهاد القلقشندى بهذه الآيات التى تجئ فيها ألفاظ تتصل بـ ( القراءة ) و " علم " و " يعلم " يؤكد ما سبق أن رجحناه من أن معنى ( الكتابة ) هو مطلق العلم والمعرفة .

ومما يزيد الكتابة ( العلم ) شرفا ورفعة أن يعتبرها الله عز وجل صفة يضيفها إلى جملة صفات الملائكة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (سورة الإنفطار ١٠ ، ١١). والأكثر من ذلك تشريفا للعلم والمعرفة أن يقسم الله بالآلة الكتابة وهو ( القلم ) ونتاج عمله مما يسطر على صفحات الورق فيقول ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (سورة القلم: ١ ، ٢). والقسم لا يقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع ، وكريم ما اخترع ، كالشمس والقمر والنجوم وما إلى ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها (ص ٣٦) .

وأمة العرب فى شبه الجزيرة لقة درايتم بالكتابة كانوا يعتمدون على ( الحفظ ) فيجعلون ( ذاكرتهم ) هى ( المكتبة ) التى تحفظ فيها الأنساب والأشعار والقصص والروايات وما إلى ذلك من معارف ومعلومات ، ومن هنا تأتى أهمية هذا ( الأمر النبوى ) للشريف " قيدوا العلم بالكتاب " ، قال نو الرمة لعيسى بن عمر : " لكتب شعري ، فالكتاب أعجب إلى من الحفظ ، إن

الأعرابي لينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة في وزنها  
لا تساويها ، والكتاب لا ينسى ولا يبذل كلاما بكلام " .

ولا شك أن " للتدوين " أهميته القصوى في استمرار الثقافة عبر الأجيال  
بحيث يستطيع الجيل اللاحق أن يقف على ما وصل إليه الجيل السابق فينسى  
عليه ويكمل مسيرته فيتحقق التطور المنشود ، ويحدث للتجديد المطلوب ، ولو  
تخيلنا أن كل ما يصل إليه جيل لا " يكتب " ، فإنه سيضيع بوفاة أصحابه ، ويبدأ  
اللاحقون لا من حيث انتهى السابقون ، بل من حيث بدؤوا .

وما هو إنسان اليوم لم يقف عند حد " التدوين " بإثبات الأفكار  
والمعلومات على صفحات الورق ، بل اخترع وسيلة أخرى هي " التسجيل "   
الصوتى ثم زاد على ذلك ووصل إلى تسجيل للصورة مما ساعد على دفع  
عجلة التقدم إلى الإسراع في دورانها بدرجة لم تكن تخطر على بال ، بمستوى  
لم يكن يحلم به أحد من قبل !

وقد أفاض كتاب العرب في مدح الكتابة والحث عليها (ص ٣٧) .

- قال معن بن زائدة : " إذا لم تكتب اليد فهي رجل " .

وقال المؤيد : " الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، إليها ينتهى  
الفضل وعندها تقف الرغبة " .

ومن كلام أبي جعفر " الفضل بن أحمد " : " الكتابة أس الملك ، وعماد  
المملكة .. والكتابة قطب الأدب ، وملاك الحكمة ، ولسان ناطق بالفصل ،  
وميزان يدل على رجاحة العقل .

والكتابة نور العلم .. وميدان الفضل والعدل . والكتابة حلية وزينة  
ولبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أقسام متفرقة ، والكتابة أفضل درجة

وأرفع منزلة .. وبالكتابة قامت السياسة والرياسة ، ... ولو أن فى الصناعات  
صناعة تربية لكانت الكتابة ربا لكل صنعة ...

وقد نكر علماء التاريخ أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزير ،  
وهارون ويوشع ابن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام ، وسليمان بن داود  
كان يكتب لأبيه ، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام (ص ٣٩).

وقد انتقل جماعة منها إلى الخلافة ، فأبو بكر كان يكتب لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ثم صارت للخلافة إليه بعد ذلك . وعمر بن الخطاب  
كان يكتب للنبي ثم صارت الخلافة إليه ، وعثمان بن عفان ومعاوية بن أبى  
سفيان كذلك . وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية ثم انتقل الأمر إليه .

ويذكر القلقشندى عددا كبيرا من الكتاب ، كانوا يعيشون معيشة ضنكى  
حتى إذا أتاح الله لهم فرصة الالتحاق بالعمل لدى السلطة الحاكمة ، تبدلت  
أحوالهم وتحسنت أوضاعهم فإذا بهم يرفطون فى أنيال الترف وللنعيم ، وكمثال  
على ذلك الوزير المهلبى فقد كان فى أول أمره فى شدة عزيمة من الفقر  
والضائقة ، وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره ضيقا خطيرا لدرجة أنه اشتهى  
اللحم فلم يقدر عليه ، فقال (ص ٤١) :

ألا موت يباع فأشترته فهذا العيش ما لا خير فيه !

ألا موت لذى الطعم يأتى يخلصنى من الموت الكريه !

ألا رحم المهمين نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه !

وكان معه رفيق ، فاشترى له لحما وأطعمه ، ثم ترقى بالكتابة حتى تقلد  
منصب الوزارة لمعز الدولة بن بويه الديلمى ...

ولعل هذا هو ما نقصده نحن في عصرنا الحالي عندما نذهب إلى أن التعليم بمثابة (مصعد اجتماعي) يتيح الفرصة لأصحابه أن يبذلوا وضعهم الاجتماعي إلى ما هو أفضل ، فيتم لأفراد المجتمع قدر من ( الحراك الاجتماعي ) وبذلك تتاح الفرصة للمجتمع لتجديد خلاياه وبعث حركة من التجديد فيه فتسقط تلك الفئات التي راح دورها ، وتخلفت وظائفها ويحل محلها فئات أخرى تكون أقدر على البصر باتجاهات العصر ومسار حركة التاريخ . وبالطبع يمكن أن يحدث العكس في حال افتقاد التعليم !

لكن ربما يسأل سائل : إذا كان أمر العلم والكتابة على هذه الدرجة من الأهمية ، فلماذا لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم عارفا بها وهو القدوة والمثل لكل المسلمين ولكل من يرغب في أن يكون مسلما ؟

يجيب القلقشندى على ذلك إجابة تحمل قدرا كبيرا من الصحة والمنطقية ، إنها حكمة الله في اختيار الرسول أميا لأن معجزة الإسلام الكبرى هي ( القرآن الكريم ) بلفظه ومعناه ، ولو كان الرسول متقنا للقراءة والكتابة لأسرع المفكرون إلى اتهامه بأنه هو صاحب القرآن وأنه ليس منزلا من قبل الله عز وجل ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، يقول عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (سورة الفرقان : ٥) وأكد أيضا ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٨) .

### المواصفات التي يجب توافرها في المتعلمين والعلماء :

وصنف القلقشندى الصفات والآداب التي يجب أن تتوفر في الكتاب ، وهم صفوة المتعلمين والعلماء دون أن يبين لنا الأساس الذي استند إليه في التصنيف ، أو حتى يتيح الفرصة لنا للاستباط والاستنتاج ، فهو مثلا يذهب إلى

أن هناك صفات ، وهناك آداب ، فلقد حاولنا أن نضع أيدينا على ما يضعه من فرق بين الإثنين ، فلم ننجح ، فهل يريد بالصفات ، جوانب تتعلق بمهارات العلم والكتابة ، ويريد بالآداب جوانب أخلاقية ؟ لو افترضنا ذلك فسوف نجد تداخلا شديدا بين القسمين. لم هل يريد بالقسم الأول جوانب أساسية والآخر جوانب ثانوية؟ لا نستطيع الاعتماد على هذا الاحتمال أيضا وإلا وجدنا تداخلا ، ومن هنا فلا نجد أمامنا إلا إبراز هذه للصفات والآداب كما رسدها هو دون أن نفرض لها من عندنا أساسا يقوم عليه تصنيفها:

أما الصفات ، فهي على ضربين ، أولها ، صفات واجبة لازمة لا يجوز التفاضل عنها، وهي عشر صفات (ص ٦١) .

١- الإسلام ، ويعنى بذلك أن يتمثل العقيدة الإسلامية فكرا وسلوكا ، ذلك أن من شأن هذا أن يجعل للناس يأمنون لما يكتب ويتقون به ومن ثم فلا ينبغي أن يلى وظيفة للكاتب ، أحد للكافرين حتى لا يطلع على أسرار للمسلمين ويبلغ بها إلى أهله وعشيرته فى الفكر والعقيدة ، تطبيقا لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ ثُورِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَكُؤُا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١١٨) .

ولما فتح العرب مصر ، بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل فى عمل من أعمال المسلمين كافرا ، فاعتذر عمرو بأن المسلمين لم تكن لهم دراية بمصر وأحوالها ، ومن ثم فقد اضطر إلى استخدام غيرهم إلى أن تتوفر لهم هذه للدراية والخبرة ، لكن عمر بن الخطاب غضب من ذلك قائلا لعمرو: كيف تؤمنهم وقد خونهم الله وكيف تعزمهم وقد أنلهم الله ؟ وكيف تقربهم وقد بعدهم الله ؟ ثم تلا الآية السابقة .

والحق أن هذا الشرط إذا كان " أملا " و " هدفا " ، إلا أن الالتزام به في العصر الحاضر يكاد يكون مستحيلا ، لقد كان جوهريا في العصور الإسلامية الأولى حيث كانت الحروب شبه مستمرة بين المسلمين وغيرهم مما كان يتحتم معه ألا يطلع غير مسلم على أحوال المسلمين وخاصة في مراكز السلطة والقيادة ، لكن الأمر غير ذلك الآن ، فدولنا يقوم بأعمالها المسلمون وغير المسلمين ، وإن كان هذا لا ينفى استمرار بعض المواقف والأحوال التي تحتاج إلى مثل ذلك الشرط ، فما زلنا - ويجب أن نستمر في هذا - نتحرز من استخدام اليهود في مراكز السلطة والحرب والحكم نظرا لتلك المواجهة القائمة بيننا وبينهم لكننا حتى في هذه الحالة لا نمنع أن نشرك معنا المسيحي .

بل وماذا نقول في كثير من العهود الإسلامية السابقة نفسها ؟ لقد تسرب بعض أهل الذمة إلى مراكز السلطة والقيادة واستعانوا بهم ، وكان لهم نفوذ كبير استطاعوا من خلاله أن يؤثروا على مجرى الأحداث أحيانا .

ومن المبررات التي سبقت لاشتراط إسلام الكاتب أنه في عمله ملتزم باستخدام القرآن الكريم الذي ينبغي لا يمسه " إلا المطهرون " (ص ٦٢-٦٣).

٢- الذكورة - ونحن نستطيع أن ( نفهم ) شرطا مثل هذا أيضا في العصور الإسلامية حيث لم تكن النساء تشاركن في الحكم والإدارة ، بيد أننا لا نستطيع أن نفر ذلك في الوقت الحالي وإن كان من الممكن القول بتخصيص بعض الأعمال لهن بحيث لا يشاركن دائما في كل الأعمال وفي كل الأحوال ، ومن هنا فالتعليم بالنسبة لهن واجب وفرض لا ينبغي التناقص عنه بأي حال من الأحوال ، بل إننا لم نعد في موضع يسمح لنا بالإفاضة في ذلك لأن هذه القضية قد حسمت منذ سنوات طويلة ولم تعد محل نقاش ونزاع ، إلا مع المعاندين لسنة التطور والتقدم .

كذلك فإننا نقف بدهشة أمام بعض الآثار التي رواها القلقشندى آمليين أن تتاح لنا فرصة أخرى في بحث مستقل قائم بذاته للتحقق من هذه الآثار ، فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله: " جنبوهن الكتابة ، ولا تسكنوهن الغرف ، واستعينوا عليهن بلا ، فإن نعم تضربهن في المسألة " . ومر على بن أبي طالب على رجل يعلم امرأة الخط ، فقال : " لا تزد للشر شرا ..!! (ص ٦٤).

ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم للكتابة فقال : " نفعي تُسقى سما " .

بل لقد وقف أحد شعراء العرب ليقول :

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة !

هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابة !!؟

ووجه دهشتنا أنه من الثابت أن بعض للنساء المسلمات جنن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلبن أن يخصص لهن وقتا يعلمهن فيه بحيث لا يتعلمن في الصفوف الخلفية مع الرجال حتى يستقنن أكثر.

وإذا قيل أن هذا لا يعنى تعلم الكتابة ، فإنه من الثابت أيضا أن عائشة بنت أبي بكر ، وزوجة الرسول الكريم كانت تكتب ، وكذلك حفصه بنت عمر ابن الخطاب نفسه ... وهكذا .

٣- الحرية . وإذا كان القلقشندى يقصد بها ما يقابل العبودية ، حيث كان الرق معروفا في وقت بحيث نصح ألا يولى عبد منصب الكتابة ، إلا أننا نمسك بتلابيب هذه الصفة ونتمسك بها بمعنى آخر نجعلها تتصرف إلى إتاحة الفرصة للمتعلمين والعلماء والكتاب أن يستمتعوا بحرية الفكر والكتابة لما هو معروف من أنها شرط أساسى لازدهار الثقافة وراثتها .

٤- التكليف . بمعنى ضرورة أن يبلغ الكاتب سنا معينة نثق عندها فيه ، وقد تكون هذه السن هي سن البلوغ ، وقد تكون سن الرشد. ومن المعروف أن كثيرا من المجتمعات المعاصرة ، ومنها مصر ، تحدد سن الثامنة عشر لتقلد الوظائف .

٥- العدالة . وتلك صفة هامة وخطيرة أوقعنا التخلي عنها فى مآزق كثيرة وخلل واضح ، ومن هنا كان قول القلقشندى بعدم جواز أن يكون الكاتب فاسقا لخطر المركز الذى يشغله ، إذ يستطيع عن طريقه أن يضر بمصالح الناس وأموالهم لو كان فاسد الأخلاق .

٦- البلاغة . وإذا كان القلقشندى يشير هنا إلى " حسن الألفاظ " و " المعانى الجزلة " وما إلى ذلك ، فإننا بأشد الحاجة فى الوقت الحالى إلى " الحد الأدنى " من التمكن فى اللغة العربية، لا لأن ذلك هو الهدف الذى يجب أن نتجه إليه ، كلا ، وإنما درءا لهذا الانحدار الواضح فى مستويات الكتاب والمتعلمين فى أبسط قواعد اللغة حتى لنكاد ننفر دون شعوب العالم فى ذلك ، فلم يحدث أن كتب عالم انجليزى أو مفكر فرنسى ، أو أديب روسى وأخطأ فى لغته القومية ، لكننا فى مصر والبلاد العربية أصبحنا نتجاوز فى ذلك فسمحنا لأصحاب العلوم الطبيعية والبيولوجية والرياضية ومن مثلهم بالخطأ استنادا إلى أنهم غير متخصصين فى اللغة ، حتى امتد التسبب والتساهل فشمّل هذه الأيام مع الأسف قطاعات غير صغيرة من معلمى اللغة العربية أنفسهم !

٧- التعقل . يقول القلقشندى : " فإن العقل أس الفضائل وأصل المناقب ، ومن لا عقل له لا انتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله (ص٦٦) ، ومعنى ذلك أن الكاتب إذا توافر له عقل راجح ورأى صائب ، فإنه يضع الأمور فى موضعها الصحيح ، وتمكن من أن يخاطب كل بما يقتضيه الحال التى يكون عليها ، فيشتد إذا ما كانت الشدة نافعة ، ويستخدم اللين عند ما تكون

هناك حاجة إليه ، ولا يتورع عن توبيخ ونقد من يرى أنه يستحق ذلك . هي إذن - إذا شئنا للدقة في التعبير - الجرأة في الحق ، فلا نجاح ولا توفيق فى مناصب ومراكز للرأى والكتابة ، إذا غابت عن الساحة ، ولو فئتشنا فى كثير من مشكلات عالمنا العربى والإسلامى فسنجد أن غيابها ، مسئول كبير عن ذلك !

٨- العلم بمولد الأحكام للشرعية وللنون الأدبية وغيرها ، ذلك أن الجاهل يفتقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، لخطأ والصواب " ومن سلك طريقا بغير دليل ضل " .

٩- قوة العزم وعلو الهممة وشرف للنفس فمهنة للكتابة ومعظم المهين العلمية تتطلب روحا إيجابية واعتزازا بالنفس وثقة بالذات فى غير غرور .

١٠- الكفاية للعملية المناسبة وتلك لا تتحقق إلا إذا وضع " للرجل المناسب فى المكان المناسب " بناء على ما يتمتع به من " أهلية عملية " لا بواسطة أو نفوذ مثلما يحدث فى بلادنا الإسلامية الآن مع الأسف الشديد !!

أما الضرب الثانى من الصفات ، وهى ما يسميه اللغوشندى بـ ( الصفات العرفية ) فهى غير مرتبة ومتعددة ، يتداخل بعضها فى الصفات السابقة ، ومن تلك الصفات العرفية أن يكون للكاتب (٦٨) :

حاد الذهن - حاضر الحس - حلو للسان - جيد الحس - كريم الأخلاق - عظيم النزاهة - فيه تودة يوقف بها نفسه إزاء ما لا يتأكد منه من المسائل والقضايا - حس للبيان - مليح الاستعارة - لطيف للمسلك - بهى للملبس .. إلى غير ذلك من صفات لو أننا تأملناها لأدركنا على الفور أن اللغوشندى يتحدث عن " مثال " ندر أن يتحقق تماما فى عالمنا الأرض للمتخم بالمشكلات والعوائق والتحديات ، والمثال دائما جانبا للحركة والنشاط .. نسعى

نحوه .. ونلهث وراءه ، فتدور عجلة الحياة ، ونحزز التقدم ويحدث التطور ، ولو قد أهدنا بحجة أن تلك " مثاليات " يستحيل أن تتحقق لقلنا له .. ما هكذا تكون الرؤية للمثال والواقع ، فلو سهل طريق المثال لم يعد مثالا ، ولفترت حركة الإنسان فى هذا الكون !

ومن الملفت للنظر أن القلقشندى إذ يمر على الجمهرة الكبرى من الصفات السابقة مرورا سريعا واضحا ، يقف بعض الشيء أمام إحدى هذه الصفات وهى " حسن الهيئة " فيفيض فيها قليلا ويدهشنا كثيرا قوله أنه إذا كان قد اشترط أن يكون الكاتب " بهى الملبس " ، إلا أن " فصاحة اللسان ، وقوة البيان والتقدم فى صناعة الكتابة هو الذى يرفع الرجل ويعظمه دون أثوابه البهية ، وهيئته الزاهية " .

أما ( الآداب ) فهى فى نظر القلقشندى على نوعين :

الأول : حسن السيرة وشرف المذهب ، ولذلك شروط ولوازم ، منها تقوى الله فى السر والعلانية ، ومنها مجانبة الريبة والتترة عنها ،والذى يدرس الرعيل الأول من الكتاب والعلماء والمتقفين المسلمين يستطيع أن يلمس بوضوح أنهم كانوا من " جلة العلماء ، وسادة الفقهاء ، وأفاضل أهل الورع ،المبدئين من الننس والطمع " .

ومنها لزوم العفاف وحسن صيانة ما يكون فى نمتهم من أعمال ومستوليات .

ومنها الاقتصاد فى طلب اللذة والمتعة ، ذلك أن الانشغال بالشهوات غير مستحسن لا لكبير ولا لصغير ، فإنها تصرف الإنسان عن العمل . ولا يعنى هذا ترك اللذات تماما ، فهذا يكاد يكون مستحيلا ، فلا بد من الأخذ منها بنصيب معقول .

الثانى . حسن العشرة ، وهى نفسها خمسة صور وأشكال :

أولها ، عشرة الملوك والعظماء . والذى يستطيع ذلك هو الذى تعلوه درجته فى الألب ويتميز برجاجة العقل ، والصبر فى تحمل المشاق ، ذلك أن الذى يصاحب السلطان إنما يعرض نفسه لأخطار كثيرة . ويفيض القلقشندى بعض الشئ فى هذا النوع من " المعاشرة " ، وإن كنا تختلف معه كثيرا فى هذا ، فمن رأينا أن مصاحبة الكاتب أو المفكر لصاحب السلطة هى ضرورة بطبيعة الحال تأدية لأمانة الكلمة وواجب للنصيحة والمشورة ، ولكن الذى يرتاد هذا الطريق يغيره القرب من السلطة ، فيلين جانبه ويصبح همه هو إرضاء السلطان ، فلا يحدثه بما يجب أن يسمع وإنما يحدثه بما يجب أن يسمع ، فيناقض ، ويخفى العيوب والثغرات فيخون بذلك أمانة للفكرة وأمانة الكلمة وتتحول صحبته إلى وبال ما بعده وبال !

لكن والحق يقال ، فقد حرص القلقشندى أن يلزم سالك هذا الطريق بعدد من الأمور يأتى فى مقدماتها (ص ٨٠) :

الإخلاص - النصيحة - كتمان السر - الاجتهاد - الشكر - الوفاء -  
مجانبة الإدلال - التمسك بأداب الخدمة بالمواظبة عليها - حسن اختيار الأوقات  
المناسبة للمخاطبة والتحدث - ترك للنميمة ونم الغير .. وهكذا .

وثانى هذه الصور ، عشرة للزملاء والأصدقاء ، أو بتعبير القلقشندى ( الأصدقاء والنظراء ) والآداب المطلوبة هنا ، هى الوفاء والتسامح والحرص على استمرار العلاقات حتى مع من لا يحرصون على تدعيمها وتمييزها . والمبرر الأساسى لهذا كله هو " التزامل " فى المهنة والعمل والفكر فهى أشد قوة وأعز شأنًا من قرابة الدم .

وثالثها ، عشرة الأتباع ، فليس معنى أن يكون للكاتب أتباع أن يتعالى عليهم ويهمل شأنهم وإنما على العكس من ذلك ، إذ ينبغي أن يخصصهم بالنصيب الأوفر من إكرامه وذلك حتى يخدموه عن رغبة وحب لا عن خوف ورهبة ، وأن يحبب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ، وإتاحة الفرصة لهم كي ينالوا ما هم بحاجة إليه من المتعة والترفيه حتى لا يصيبهم الملل ويعتريهم الضجر ، وإن كان هذا لا يعنى التسامح فى هذا الشأن ، لأنه قد يعودهم بذلك على التسيب والكسل (ص ٨٣).

ورابعها ، عشرة الرعية والمقصود بذلك ، ( الجمهور ) ، أو ( الزبائن ) الذين يتعامل معهم الكاتب " إذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ، ونفورهم منه " ، وقدوتنا فى ذلك قول الله عز وجل واصفا الرسول صلى الله عليه وسلم ( ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ) ومن ثم فمن المهم أن يحرص الكاتب على التبسط مع الجمهور ولين الجانب ويبرأ من البعض والشحناء .

وخامسها ، عشرة من يمت إليه بحرمة ، مثل الجار والقاصدين إليه والأمين فيه خيرا وغيرهم مثل مشايخ المهن والحرف الذين بذلوا الجهد لتذليل سبلها وتسهيل طرقها فلا يبخسهم حقهم وإنما يعاملهم بالإنصاف فيما جهدوا فيه.

### العلوم التى يحتاجها الكاتب والمتقنون :

وكما أشرنا من قبل ، فنظرا لاتساع دائرة العمل والاختصاص المطلوب من الكاتب صنف القلقشندى هذه العلوم والمعارف والمهارات إلى ما يأتى :

١- المعرفة باللغة العربية ، فهى والحق يقال ، رأس مال الكاتب ، من حيث أن الألفاظ قوالب للمعانى التى يريد الكاتب أن يعبر عنها مما يحتم عليه

أن يمهز فيها فيعرف الأسماء والأفعال والحروف وللتصرف في وجوه دلالاتها الظاهرة والخفية ليتمكن بذلك من استعمالها فيما يحسن أن تستخدم فيه ، وتتسع أمامه السبل والوسائل فلا يقتصر على الصور المألوفة والمطروقة .

وقد أفاض القلقشندي كثيرا في شرح الجوانب التي يوجب على الكاتب العلم بها من جوانب اللغة العربية (ص ١٥٠-١٦٤) .

٢- المعرفة باللغات الأجنبية ، وتلك لعمري أداة هامة أن كانت ذات شأن وقيمة في زمن المماليك بحيث أشار إليها القلقشندي ودعا إلى تعلمها ، فحنن في العصر الحاضر أشد احتياجا إليها ، فلقد كان المسلمون في الزمن السابق هم أصحاب الحضارة يعطون أكثر مما يأخذون ، ولذلك كان على غيرهم أن يتعلم لغتهم ، ومع ذلك ، فما هو صاحبنا يدعو كتاب زمنه إلى تعلم اللغات غير العربية ، أما الآن فالغرب هو صاحب الحضارة السائدة ، ونحن نأخذ منه أضعاف ما نعطيه من الثقافة ، ومن ثم تحتم علينا معرفة لغاته حتى يمكن لنا فهم ومعرفة ما تحويه كتبه ومصادره من ألوان العلوم والفنون . وهناك من الأسانيد الإسلامية ما يجعل ذلك أمرا مطلوبيا ومتحسنا ، فقد روى عن زيد ابن ثابت أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه يرد على أشياء من كلام السريانية لا أحسنها ، فتعلم كلام السريانية ، فتعلمتها في ستة عشر يوما ، وفي رواية قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يا زيد ، تعلم كتاب يهود فإني والله لا آمن يهود على كتابي . قال : فتعلمت كتابتهم ، فما مر لي ست عشرة ليلة حتى حنفته فكننت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليهم وأجيب إذا كتب ) ، وفي رواية العبرانية بدل السريانية (١٦٥) .

٣- المعرفة بعلم النحو : فلا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية وميزان تقويمها، ذلك أن الكاتب لا ينبغي له أن يقف عند حد معرفة اللغة بأسمائها وحروفها وأفعالها والجمل التي تتركب منها ، إذا لا بد من معيار لكل

ذلك ، والمعيار هو النحو فقد قال الرشيد يوما لبنيه: " ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمه ؟ " ومن كلام مالك بن أنس : " الإعراب حَلَى اللسان ، فلا تمنعوا ألسنتكم حَلِيهَا " ، ولأبى سعيد البصرى شعر فى ذلك جاء فيه (ص ١٦٩) :

النحو يبسط من لسان الأَلَكَنِ      والمرء تُكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجَلُهَا      فأجَلُهَا عندى مقيم الألسن

وقد روى أن إعرابيا سمع قارنا يقرأ ( أن الله برئ من المشركين ورسوله ) ، بجر رسوله فتوهم عطفه على المشركين ، فقال : أو برئ الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأمر أن لا يقرأ للقرآن إلا من يحسن العربية .

وينعى القلقشندى على زمنه أن اللحن قد فشا فيه بين الناس والألسن قد تغيرت حتى صار - التكلم بالإعراب عيبا ، والنطق بالكلام الفصيح عيبا . ولو درس ماذا حدث بعد ذلك حتى أوائل القرن الخامس عشر لحمد الله على ما كان فى زمانه !!

وأحسن وسيلة لمواجهة ذلك المحافظة على الإعراب فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وفى الشعر والكلام المسجوع ، وما يدون من الكلام ويكتب من المراسلات ونموها .

٤- المعرفة بالتصريف ( علم الصرف ) ، وذلك حتى يتمكن الكاتب من معرفة أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليها

ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة ، وزيادتها وحنفها ويدها ضل حينئذ عن السبيل (ص ١٧٧).

٥- المعرفة بطوم المعانى والبيان والبديع . ولعل أدق ما يشير لنا إلى أهميتها ، ما كتبه أبو هلال العسكري فى هذا الشأن ، إذ قال أن الذى لا يحسن هذه العلوم تسقط قيمته : لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردى ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله، وظهر نقصه ، وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يضع قصيدة وقد فاتته هذه العلوم مزج الصفو بالكدر .. فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل ، وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه ، ساء اختياره ، وقبحت آثاره فأخذ الردى المرود، وترك الجيد المقبول ، فدل على تصور فهمه وتأخر معرفته ، مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم للذين منهما يستمد الكاتب شريف المعانى ، ويستعير فصيح الألفاظ ، بل منهما تستفاد سائر العلوم ، وتقتبس نفائس الفضائل " (ص ١٨١).

٦- حفظ القرآن الكريم ، وذلك لقوله تعالى : ( فله الحجة البالغة ) وقوله ( ما فرطنا فى الكتاب من شئ ) وكذلك ( نبيانا لكل شئ ) ، إلى الدرجة التى قال فيها بعضهم " لو ضاع لى عقل لوجدته فى القرآن الكريم ، وذلك من قوة زيمانه ، بأن القرآن جامع شامل .

فحفظ القرآن يضع بين يدى الكاتب ثروة لغوية وفكرية هائلة يستطيع أن يستمد منها الحجج الدامغة والبراهين الدقيقة والتشبيهات الرائعة ، والناس فى استخراج المعانى من القرآن الكريم واستعمالها فى الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم .

وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والمعلم بتفسيره ليقتبس من معانيه ، كذلك يحتاج إلى معرفة العلوم المختصة به ، كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ومعرفة رجالها ومن اشتهر منهم وعرف بجودة القراءة ومعرفة أعيان المفسرين ورؤوسهم (٢٠٠).

٧- الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ، وكذلك الآثار للمروية عن الصحابة رضوان الله عليهم وخصوصا في السير والمغازي والأحكام وتأمل فصاحتها والنظر في معرفة معانيها وغريبها ، وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها ، ويستشهد بكل شئ في موضعه ويستدل بالدليل في موضعه " يكون المقصد إذا استند إلى النص تقويت فيه الحجة ، وسلم له الخصم ، وأذعن له المعاند " .

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث ويستدلون به في مواطن الخلاف والنزاع ، فقد رجع عمر بن الخطاب لحديث النهي عن دخول البلاد التي ينتشر فيها الطاعون ، فعاد إلى المدينة بعد أن قارب الشام حين بلغه أن الطاعون كان فيها فاشيا .

ومما يذكره الوزير ضياء الدين بن الأثير : " واعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال ولا يخرج عنه إلا القليل النادر " ، ويريد بذلك أن الكثرة الغالبة من الأحاديث النبوية سيجد الكاتب أنه بحاجة إلى استخدامها .

وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ الأحاديث والآثار ، كذلك يحتاج إلى المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها وكذلك المعرفة بأسماء الرجال والمشاهير من المحدثين (ص ٢٠٨).

٨- الإكثار من حفظ خطب البلغاء . فالتاريخ الإسلامى زاخر بمن بلغوا شأوا بعيدا في فصاحة اللسان وبلاغة القول ، والوقوف على مثل هذه الخطب

واستيعابها فهما وحفظا يمد الكاتب بكم هائل يمكن أن ينسج على منواله لا تقليدا أو تكرارا وإنما تأسيا في النهج والمقصد ويعلى القلقشندى من شأن الخطب بالنسبة للثقافة العربية والحياة الإسلامية " وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة ، ومجامع الحكم ، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم ، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ، بها يتميز الكلام ، وبها يخاطب الخاطب الخاص والعام ، وعلى منوال الخطابة نسجت للكتابة ، وعلى طريقة الخطباء مشت الكتاب " (ص ٢١٠).

لكن لابد لنا أن ننبه إلى أن أمرا مثل هذا إنما هو وسيلة ، لكن الذى حدث بعد عصر القلقشندى ، أن كثيرا من الناس اتخذوه غاية ، فأخذ بعض المؤلفين يكتبون " نماذج " من الخطب ، ويسرع بعض من لا همة لهم إلى مجرد ترديد ما بعد أن كان الغرض أولا هو " الاستفادة منها بقدر " و " الاستعانة بها " كمنهج فى الكتابة والتفكير ، فصار ضررها أكثر من نفعها ، وتعطلت عقول هؤلاء الذين سلخوا هذا الطريق ، وتسببوا فى اتهام الثقافة العربية بأنها لا تقوم إلا على الحفظ وتعتد الابتكار والإبداع .

٩- حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول ومحاوراتهم. وما عبقنا به على البند السابق هو أيضا ما نكرره هنا ، بل أن هذا للنوع هو أكثر الأنواع شيوعا فى التقليد ف نجد من يؤلفون ( رسائل فى الغرام ) و ( رسائل الأصدقاء ) ومع إلى ذلك ، بحيث إذا أراد أحد كتابة رسالة ، فما عليه إلا أن ينقل حرفيا نموذجا منها !! ومن الطريف أن القلقشندى قد نبه فى وقته إلى خطر ذلك ، فأشار بأن الغرض منها إنما هو أن " يستعان بحفظها على مواقع البلاغة " ، وحذر ونهى أن " لا يطمع الخاطر بالاتكال على إيراد فصل منها برمته لمخالفته لأسلوب الكتاب فى أكثر الأمور " (ص ٢٢٧) !

كذلك يعدد القلقشندى وظائف هذا النوع بأن فيه : " تنقيح القريحة ، وإرشاد خاطر ، وتسهيل الطرق ، والنسج على منوال المجيد والافتداء بطريقة المحسن ، واستدراك ما فات ، والاحتراز مما أظهره النقد .. واقتصر على النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل خاطر على ما يأتي به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبى زور " ، فهذا هو صاحبنا وبألفاظ صريحة ، بل وبأعنف ما نقول نحن ، يتهم الذين يعملون على كتابات غيرهم بالتزوير مما دعاه إلى أن لا يحبذ الحفظ بالنسبة لهذا النوع .

١٠- الاستكثار من حفظ الأشعار العربية.

١١- الإكثار من حفظ الأمثال . والأهمية التربوية لهذا النوع أنه عادة ما يلخص " خبرة المجتمع " العملية فى الحياة بكلمات قليلة بحيث يمكن أن نستند إليها فى استقراء الاتجاهات التربوية فى مجتمع ما ، فإذا قرأنا مثلاً - " أهل مكة أخرجت بشعابها " ، فإن ذلك يشير إلى إيمان العرب بأهمية " الخبرة " مما يجعل أهل الوطن ، أكثر دراية به من غيرهم ، ومن ثم فشهادة المواطن عن موطنه أكثر صدقاً وأقرب إلى الحقيقة من شهادة غيره ، هذا فى حالة الصدق بطبيعة الحال .

١٢- معرفة أنساب الأمم من العرب وغيرهم .

١٣- المعرفة بمفاخر الأمم ومنافراتهم ، وما جرى بينهم فى ذلك من المحاورات .

ولا شك أن هذين النوعين مما اقتصت به الثقافة العربية دون غيرها ، ولربما قلت الحاجة إلى استخدامهما فى ثقافتنا المعاصرة إلا من حيث " التاريخ " ، وكذلك يمكن الاستفادة بالنوع الثالث عشر ، إذا قصدنا به الوقوف على

المميزات والخصائص التي تخص كل مجتمع من المجتمعات ، فهذا أمر هام تعطيه العلوم الاجتماعية اهتماما بالغا ويحتمل مكانة أساسية في دراساتها .

١٤- المعرفة بأيام الحروب الواقعة . وهذا أيضا مما كانت تعنى به الثقافة العربية مما أوحى للبعض أن يذهب إلى وضعها بأنها كانت تعنى بالحرب أكثر من عنايتها بالسلام ، بيد أننا نعلم هذه الثقافة كثيرا إذا لم نضع في الاعتبار ظروف ( التحدي ) المستمرة التي تعيشها منذ ظهور الإسلام وحتى الآن .

١٥- أوابد العرب (ص٣٩٨) ، وهي أمور كانت للعرب عليها في الجاهلية ، بعضها يجرى مجرى الديانات وبعضها يجرى مجرى الاصطلاحات ، وبعضها يجرى مجرى الخرافات ، وجاء الإسلام بإبطالها ، مثل : الكهانة ، وواد البنات ، ولا نظن أن لها قيمة الآن إلا بالنسبة لدارسي التاريخ العربي وخاصة القديم وكذلك الأدب العربي .

١٦- عادات العرب .

١٧- قراءة كتب التاريخ .

١٨- المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المؤلفة فيها ، وأسماء العلماء المبرزين في فنونها .

وفي هذا النوع يفرض القلقسندى في ذكر أسماء العلوم بمختلف تصنيفاتها ، ومن المهم لنا في هذا المجال أن نشير إليها في إيجاز :

أ- علوم الأدب ، وتشمل : علم اللغة - علم التصريف - علم النحو - علم المعاني - علم البيان - علم البديع - علم العروض - علم القوافي - علم قوائين الخط - قوائين القراءة.

وقد سبق أن بينا أهمية بعض هذه العلوم بالنسبة للكاتب .

ب- العلوم الشرعية ، وتشمل : علم النواميس المتعلق بالنبوات - علم القراءات - علم التفسير - علم رواية الحديث - علم دراية الحديث - علم أصول الدين - علم الجدل - علم الفقه .

ج- العلوم الطبيعية ، وتشمل : علم الطب - علم البيطرة - علم البيطرة ( الصيدلة ) - علم الفراسة - علم تعبير الرؤيا - علم أحكام النجوم - علم السحر - علم الطلسمات - علم السيميا - علم الكيمياء - علم الفلاحة - علم ضرب الرمل .

د- علوم الهندسة : وتشمل : علم المناظر - علم المرايا المحرقة - علم مراكز الأتقال - علم المساحة - علم أنباط المياه - علم جر الأتقال - علم البنكومات - علم الآلات الحربية - علم الآلات الروحانية .

هـ- علوم الهيئة ، وتشمل : علم الزيجات - علم المواقيت - علم كيفية الأرصاد - علم تسطيح الكرة - علم الآلات الظلية .

و- علوم الرياضة ، وتشمل : علم الحساب المفتوح - علم حساب التخت والميل - علم الجبر والمقابلة - علم حساب الخطأين - علم حساب الدور والوصايا .

ت- العلوم العملية ، وتشمل : علم السياسة - علم الأخلاق - علم تدبير المنزل (ص ٤٦٨-٤٧٩) .

ومن المعروف أن هذا الموضوع بالذات من أكثر الموضوعات التي بحثها العديد من المؤلفين الإسلاميين واستقرأ تصنيفاتهم لا يظهرنا على كبير اختلاف بينهم .

١٩- المعرفة بالأحكام السلطانية ، والمقصود بها يقرب مما نعنى به الآن تحت اسم " القانون الدستورى " ، ولكن من الناحية الشرعية لا من ناحية القوانين الوضعية وقد أشار القلقشندى إلى أهم مصدر إسلامى فى هذا الباب ، وهو كتاب ( الأحكام السلطانية ) للماوردى.

### فئات المتقنين :

وبتعبير القلقشندى " أرباب الأقاليم " ، وكانت فئاتهم وألقابهم تتعدد وتختلف باختلاف العهود والدول ، ومن أهم فئاتهم :

١- القاضى : وهو عبارة عن يتولى فصل الأمور بين المتداعين فى الأحكام الشرعية وهى وظيفة قديمة كانت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكر القضاى أنه صلى الله عليه وسلم ولى القضاء باليمن عليا بن أبى طالب ومعاذا بن جبل وأبا موسى الأشعري وأن أبا بكر ولى القضاء وعمر ابن الخطاب .

وقد حدث فى بعض العهود أن أطلقوا هذا اللقب والألقاب المتفرعة عنه مثل القضاى والقاضى ، على أرباب الأقاليم جملة ، سواء كان صاحب اللقب متقلدا بالفعل لهذه الوظيفة أو غيرها ، كسائر العطاء والكتاب ومن فى معانهم ، وعلى ذلك كان عرف العامة أيضا .

٢- المحتسب ، وهو من يقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتحدث فى أمر المكاييل والموازين ونحوهما ، وقد سمي بذلك لأنه يكفى الناس مئونة من يبخسهم حقوقهم .

٣- الكاتب ، وكان - كما قلنا - يطلق على كاتب الإنشاء فقط ، ثم تغير الحال بعد ذلك إلى أن صار العرف العام بمصر بصرفونه إلى كاتب المال

وهو من الألقاب القديمة ، فقبل التلقيب بالوزارة فى الدولة العباسية ، كانوا يقولون : كاتب .

وداخل فئة الكتاب ، هناك طوائف متعددة ، منها (ج ٥، ص ٤٦٤):

أ - كاتب السر ، وهو صاحب ديوان الإنشاء .

ب- كاتب اللست وهو الذى يجلس مع كاتب السريدار لعدل أمام السلطان أو النائب ببلد من البلدان .

ج- كاتب الدرج ، وهو الذى يكتب المكاتبات والولايات وغيرها فى الغالب .

أما كتاب الأموال ، فقد تنوعت وظائفهم وألقابهم ، مثل (ص ٤٦٥) :

- الوزير ، إذا كان من أرباب الأقاليم.

- الناظر ، وهو ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد .

- صاحب الديوان ، وكانوا من قبل يسمونه ( متولى الديوان ) ، وهو ثانى رتبة الناظر فى المراجعة ، وله أمور تخصه كترتيب الدرج ونحو ذلك .

- الشاهد . وهو الذى يشهد بمتعلقات الديوان نفياً وإثباتاً .

- المستوفى : وهو الذى يضبط الديوان وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك .

- العامل . وهو الذى ينظم الحسابات ويكتبها، وقد كان هذا اللقب فى الأصل يطلق على الأمير المتولى العمل ثم نقله للعرف إلى هذا الكاتب وخص به دون غيره .

- الماسح . وهو الذى يتصدى لقياس أرض الزراعة .

- المعين . وهو الذى يتصدى للكتابة إعانة لأحد من المباشرين المنكورين .

- انصيرفى . وهو الذى يتولى قبض الأموال وصرفها .

٤- الخطيب : وهو الذى يخطب الناس ، وينكرهم فى الجمع والأعياد ونحوهما . وقد كان ذلك فى أوائل العصور الإسلامية مختصا بالخلفاء والأمراء (ص ٤٦٣) .

٥- المقرئ . وهو الذى يقرئ القرآن العظيم . وقد غلب لاختصاصه فى العرف على مشايخ القراءة من قراء السبعة المجيدين المتصددين لتعليم علم القراءة .

٦- المحدث : والمراد به من يتعاطى علم حديث النبى صلى الله عليه وسلم بطريق الرواية والدراية ، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالاسانية ونحو ذلك .

٧- المدرس . وهو الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية ، من التصير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك .

٨- المعيد . وهو ثانى رتبة المدرس ، وأصل وظيفته ، أنه إذا ألقى للمدرس الدرس وانصرف ، أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه .

ومن استقرائنا لبعض النصوص التى كتبت كأمر تولىة ، أو بمعناها المعاصر ( أمر تكليف ) لبعض الوظائف التى لم يكن يتولاها إلا المتعلمون ، نستطيع أن نقف على منزلة هؤلاء فى الدولة ، من ذلك على سبيل المثال ، ذلك الأمر الذى تولى به ( أبو يزيد الدوادار ) نظر الجامع الطولونى فى عهد السلطان برقوق من سلاطين دولة المماليك ، فقد جاء فيه (ج ١١ ، ص ١٦٠):

" .. وبعد .. فإن أولى من ألقيت إليه مقاليد الأمور ، وصرفناه فى جميع مصالح الجمهور وفوضنا إليه النظر فى بيوت الله تعالى ليعمرها بنظره السعيد وتضاعف له الأجور ، ومكنا له فى دولتنا الشريفة حتى صار قطب فلکها عليه تنور ، وبسطنا يده ولسانه ... من امتاز بفضيلتى السيف والقلم .."

ومن النصوص الهامة ، نص أورده القلقشندى ليصور لنا ما كان يكتب عادة عن العلماء وأهل الأدب وخاصة الإجازات بالفتيا والتدريس ، أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس ، ويكتب له بذلك .

والنص الذى نشير إليه إنما هو خاص بالقلقشندى نفسه كتب له حين أجازته شيخه سراج الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن الشهير بابن الملقن عندما جاء إلى الإسكندرية سنة ٧٧٨هـ ، وكان القلقشندى مقيماً بها ولم يكن عمره يزيد على إحدى وعشرين عاماً ، وقد جاء فى هذه الإجازة ( ج ١٤ ، ص ٣٢٣ ) :

" الحمد لله الذى رفع للعلماء مقداراً ، وأجزل نعمه عليهم إذ أعلى لهم منارا ، ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيراداً وإصداراً ، أشرعت همهم العلية فى حلبة السباق فهى لا تجارى ، وتلوا بالمفاخر جهراً وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسراراً ، أبرز بهم فى هالات المفاخر أقماراً ، وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهارة ، جعلهم لدينه أنصاراً ،

وصيرهم نخبة أصفياه إذ أودعهم من المعارف أسراراً ، واختصهم بكونهم ورثة أنبيائه : وناهيك بها فخارا .

أحمده حمد من هدى إلى الحق فجعله شعاراً ، واستضاء بنور الهدى فلجأ إلى مولاه في حالتي سره وجهره افتقارا ، وعجز عن شكر ما أسدى إليه من النعم لما توالى عليه وبثها مداراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تصديقاً وإقراراً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله والأصنام قد عبت جهاراً ، والكفار قد أعرضوا عن الحق استكباراً ، فقام بأمر الله لتتصارا ، وقهر من أعرض عن الله اغتراراً ، وأحمد بضياء نوره الباطل وأهدره إهداراً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تزيدنا في ديننا استبصاراً ، وتحط عنا من ثقل الذنوب أوزاراً ، وتبوؤنا إن شاء الله تعالى في دار الخلود قراراً .

أما بعد ، فقد وضح لنوى الأبصار والبصائر ، واتضح عند نوى الأسرار والسرائر ، واستقر عند نوى القلوب السليمة ، والعقول الراجحة المستقيمة ، أن منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل ، وفضله أفضل المآثر وأثر الفضائل ، وخصوصاً معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكافئين بالشريعة المحمدية ، التي من علمها وعمل بها وعلمها فقد سعد للسعادة الأبدية ، إذ هي الشريعة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة ، للنامخة لما خالفها من الشرائع الغابرة ، الباقية إلى أن يأتي وعيد الله وكل شريعة سواها دائرة ، فقد أعظم الله تعالى على من حفظها على عباده العنة ، إذ جعله وقاية لهم من مهالك الجهل وجنة ، ووعد أن ينزل في أعلى منازل الجنة ، لما شهدت به نصوص الكتاب والسنة ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ( وقال رب زدني علماً ) فنبهه على أن العلم أقوى أسباب العبادة ، إذ خصه به وحضه على أن يطلب منه الزيادة . وقال تعالى : ( وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ) فثنى بذكرهم بعده ، لكونهم أفضل الخلاق عنده . وقال تبارك

وتعالى اسمه ، وتقدس علمه : ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) . فأوضح بذلك أن أوليائه من خلقه العلماء ، إذ وصفهم وخصهم بأنهم الخائفون منه الأتقياء . وقال عليه السلام : " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين " . وقال أيضا : " ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه ، وعالمٍ ومتعلم " .

ولما كان فلان - أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويمر إلى الخيرات طريقه - ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرصية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى ، وإلى نيل السعادة - إن شاء الله تعالى - يفضى - استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة ، الحبر الفهامة ، فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أُوخذ للفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ، سراج الدين ، مفتى الإسلام والمسلمين ، أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم ، للعامل ، الأوحد ، الكامل ، القدوة ، للمرحوم نور الدين أبى الحسن على ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الصالح ، للزاهد ، العابد ، الخاشع ، الناسك ، القدوة ، للمرحوم شهاب الدين ، بركة الصالحين ، أبى العباس أحمد ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الصالح ، القدوة ، العارف ، للمرحوم ، شمس الدين ، أبى عبد الله محمد الأنصارى الشافعى ، أدام الله تعالى النفع به وببركته ، وأثرنا والمسلمين فى صالح أديته ، بمحمد وآله وصحبه وعشيرته .

وأنين وأجاز لفلان المسمى فيه ، أدام الله تعالى معاليه ، أن يدرس هذه الإمام المجتهد المطلق العالم للربانى ، أبى عبد الله محمد بن إدريس المطلبى ، الشافعى ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقبلة ومثواه ، وأن يقرأ ما

شاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبه ، حيث حل وأقام ، كيف ما شاء متى شاء وأين شاء ، وأن يفتى من قصد استفتاءه خطأ ولفظا على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه : لعلمه بديانته وأمانته ، ومعرفته ودرأيته ، وأهليته لذلك وكفايته .

فليتلق أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة ، وليترق بفضل الله تعالى نروة هذه المرتبة المنيفة ، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه ، وأسدى من الإحسان الوافر إليه ، وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبيده فى الورود والصدور ، ولا يستكف أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم : فذاك قول سعد قائله . وقد جاء " جنة العالم لا أدرى فإن أخطأها أصيبت مقاتله " فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق ، ويسلك بنا وبه أقرب طريق ، ويهديننا إلى سواء السبيل ، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

## الهوامش

- ١- سعيد عبد الفتاح عاشور : الظاهر بيبرس ، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . سلسلة أعلام العرب ( ١٤ ) ، فبراير ١٩٦٣ ، ص ١٢ .
- ٢- مقمة ابن خلدون ، ص ٤٠٥ .
- ٣- محمود رزق سليم : الأشرف قنصوة الغورى ، القاهرة ، الدار المصرية لتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ( م ٥ ) ، د.ت ، ص ٩ .
- ٤- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩٦٥ ، ص ٣١٠ .
- ٥- سيرة ابن هشام .
- ٦- صبح الأعشى ، ج١ ، ص ٥٢ .